قضايا نقدية في كتاب الشعر والشعراء لابن سلام الجمحي(٢٣١هـ)

مثل ابن سلام (٢٣١هـ)حلقة وصل بين عصر الرواية الشفهية وما ارتبط بها من مجالس العلم والمذاكرة وتبادل الآراء، وبين مرحلة التدوين والتأليف، تلك المرحلة التي كان من نتائجها ان اتيحت الثقافة للجميع، وتسببت بموجة من التأليف والنقد المصاحب له بين افراء الطبقة المثقفة بثقافة العصر آنذاك، لاسيما الفترة الممتدة بين النصف الثاني من القرن الهجري الثاني والنصف الاول من القرن الثالث.

وقد شكل اعتدال ابن سلام وسعة علمه واطلاعه عاملا مهما في دفع حركة التأليف في ميدان الشعر وروايته ، متحررا من تقليدية النقل والتسجيل التي وسمت الجهود المتعلقة بالشعر وروايته ،كما أنه حرر النقد المصاحب للشعر من السمة التأثرية والاحكام العامة المطلقة وبدأ النقد يتحول على يديه الى علم ذي اسس يخطو خطواته الاولى ، كما حرره من الشوائب التي شوهت نسيج الشعر وتاريخه والتي كان لابن اسحاق الحضرمي ومن على شاكلته دور كبير فيها ، وركن ابن سلام الى آراء العلماء في الرد على هذه الفئة ، من هنا كان تشديده على معيار اجماع اهل العلم بالشعر، يقول: " وليس لأحد اذا اجمع اهل العلم بالشعر على ابطال شيء منه.. وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الاشياء، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه" الطبقات/٤، يقول د. احسان عباس: كان ابن سلام اول من نص على استقلال النقد فافرد الناقد بدور خاص، حين جعل الشعر – أي لنقده والحكم عليه- صناعة يتقنها اهل العلم بها، ... وقد نقل ميدان الخصومة بين الشعر القديم والمحدث وجعلها حول الناقد البصير وغير البصير ، اذ لم تكن المشكلة في نظره مشكلة قدم وحداثة، بل كانت تربية القدرة على الحكم لفرز الاصيل من الدخيل(تاريخ النقد الادبي عند العرب:٦٦)

وقد كان لتأليف ابن سلام لكتاب طبقات الشعراء اثر كبير في (منهجة) الدرس الادبي وتنظيم الآراء وشتات الاقوال المتعلقة بالشعر والشعراء والنقاشات التي كانت تدور بين اهل العلم بالشعر ووضعها في قوالب منظمة، وان كان هناك بعض الاضطراب في المعايير التي اعتمد عليها ابن سلام في مؤلفه، والتي شخصها الباحثون المحدثون ، لكن ذلك لا يمنع ان كتابه كان نقلة منهجية في الدرس النقدي العربي القديم.

ومن الباحثين من يرى ان منهج ابن سلام في كتاب الطبقات قد قام على اساسيات هي:

١- سحب البساط من تحت اقدام الهواة والمتطفلين على النقد، فهو هو يضع معايير لابد من توافرها في عالم الشعر فجعله اشبه بالعارف بالدينار والدرهم المميز لزيفه وجعل كثرة المدارسة سبيلا للعلم بالشعر وما عدا ذلك طارئ عليه.
٢- ثقافة الناقد الادبي.
٣- قضية النحل والانتحال والوضع
٤- الرؤية النقدية للشعر في اطار منظور حضاري شامل. ينظر :(محمد بن سلام الجمحي (٣٢١هـ) وكتابه طبقات فحول الشعراء- محمد علي ابو حمده)

وقد بنى ابن سلام كتابه كما يوضح العنوان على فكرة الطبقات ، فذكر من شعراء الجاهلية عشر طبقات في كل واحدة اربعة شعراء، اتبعهم بثلاث طبقات هي طبقة اصحاب المراثي

وطبقة شعراء القرى العربية، ثم طبقة شعراء اليهود، وجعل عشر طبقات اخرى لشعراء الاسلام ، مختتما بأواخر العصر الاموي.

وقد افصح عن سبب هذا التحديد الزمني والاختيار معللا الامر ب(الفحولة) ، يقول في حديثه عن الجاهليين الذين اختارهم: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على اربعين شاعرا" ولم يصرح بذلك مع الاسلاميين، وظاهر كلامه ان هناك فحولا لم يختر ذكرهم في طبقاته لأسباب لم يوضحها.

وله الفضل في توسيع فكرة الفحولة التي قصرها الاصمعي (ت١٢٣هـ) على عدد محدود من الشعراء في كتابه (فحولة الشعراء) وقصرها بالتحديد على مفهوم الفحل، قال ابو حاتم: قلت ما معنى الفحل؟ قال- أي الاصمعي- ان له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاف و-الحقاف أي ما استكمل ثلاث سنوات-(فحولة الشعراء/١٠)، ويؤكد دكتور احسان عباس بقاء مقياس من مقاييس الاصمعي حاضرا في ذهن ابن سلام وهو يؤلف كتابه، وهو (اللين) غير ان ابن سلام لم يقرنه بالخير كما فعل الاصمعي(تاريخ النقد الادبي:٦٦) والمقصود بالخير هنا رأي الاصمعي المشهور في التحول الذي اصاب الشعر بعد الاسلام وتحديدا شعر حسان بن ثابت وضعفه كما يرى لانه اقترن بالخير والمعاني الاسلامية الجديدة التي حددت الشعراء لاسيما في موضوع المبالغة والصدق ، وبدلا من ان يتكلم ابن سلام عن حسان بن ثابت اشار الى وجود بعض اللين في اشعار قريش وهو ما سبب الاشكال في نسبتها الى عصرها بسبب موضوع النحل والانتحال، وبذلك فهو يقرن اللين بالانتحال وليس بالخير، ومن هذه النقطة تبدو معايير ابن سلام في كتابه قائمة على اسس هي:

- الفحولة: وذلك بمفهومها الذي سبق اليه الاصمعي في كتابه الذي اعتمد فيه على معايير في تحديد فحولة الشاعر ، منها الكم الشعري والسبق الزمني – قال في الحويدرة مثلا: لو قال خمس قصائد مثل قصيدته كان فحلا، وقال في أوس بن غلفاء الهجيمي: لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول- ، ونقل عنه القيرواني في العمدة ما معناه ان الشاعر لا يصير فحلا حتى يروي اشعار العرب ويسمع الاخبار ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الالفاظ وادل على ذلك ان يعلم بعلم العروض والنحو والنسيب وايام العرب..(ينظر العمدة).
واذا عدنا الى المصطلح في المعجم العربي نجد ارتباطه بالهجاء في الاصطلاح المتداول بين العرب ،ومعايير اخرى، يقول ابن منظور في اللسان: ان فحول الشعراء هم الذين غلبوا بالهجاء من هجاهم مثل جرير والفرزدق واشباههما، وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه، مثل علقمة بن عبده) اللسان(فحل).. والفحل هو اعلى درجة الشعراء، وارفعهم فنا وشأنا، وقسموا الشعراء الى اربعة اولهم الفحل وثانيهم المفلق وثالثهم الشاعر ثم الشعرور، وقد اخرج الاصمعي عددا كبيرا من الشعراء من معاييره فلم يعدهم فحولا ، وقد تكون الشهرة احد معايير الفحولة يروي يونس عن ابي عمرو بن العلاء قوله: " ان اوس فحل مضر، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه "مع انه بمنزلتهما ومنزلة الاعشى وأمرئ القيس اصحاب الطبقة الاولى لكن الاكتفاء باربعة شعراء كان سببا لعدم وضعه معهما.

- الطبقة: اعاد ابن سلام صياغة الفكرة التي وضعها متبعا الاصمعي بقالب الطبقة، التي تقوم على تقارب كل اصحاب طبقة في اشعارهم "فألفنا من تشابه شعره منهم الى نظرائه"، وهنا يبدو اضطراب المعايير الداخلية لكل طبقة، فأحيانا يكون المعيار للطبقة التشابه في الموضوع مثل شعراء المراثي والهجاء والغزل، والرجاز، ويكون في طبقات اخرى البيئة على نحو ما ورد في طبقة شعراء القرى، او الدين على نحو وضعه لطبقة شعراء اليهود، لكن يبدو انه عاد الى معيار الكم الذي سار عليه الاصمعي في اختيار الشعراء، وخالف هذا المنهج في طبقات اخرى، يقول شعراء الطبقة السابعة الجاهلية: "اربعة رهط محكمون مقلون وفي اشعارهم قلة"،

من هنا يرى د. احسان عباس ان النظرية تظل عبارة عن قوالب افتقدت الى الدراسة التحليلية وبيان الاسس المشتركة ومن ثم فإنها نظرية صعبة تحاشاها النقاد ومؤرخو الادب(تاريخ النقد الادبي :٧٠)

ومع ذلك فان الاساسين اللذين اعتمد عليها ابن سلام في تأليف كتابه تعدان ممارسة نقدية كون الفحولة والطبقة مصطلحات ذات بعد قيمي نقدي صرف، تثير في الذهن معايير اختيار وتمييز متعارف عليها بين النقاد واهل العلم بالشعر، على الرغم من ان مفهوم الطبقة لم يكن من عندياته ، إذ صرح انه اطلع على كتاب الطبقات لابي عبيدة ويبدو انه أخذ منهجه واضاف اليه ، ولو وصل الينا الكتاب ربما ادركنا الاضافة التي جاء بها الى هذه القضية ذات البعد النقدي، مثلما ان التمايز الفني والموضوعي الذي اصاب الشعر العربي في العصر الاموي وظهور اتجاهات شعرية واضحة في الهجاء والغزل تحديدا تمخض عنها نوع من التخصص الذي يوصف به الشاعر، فكان الناس يضعون جرير والاخطل والفرزدق في (طبقة واحدة) وان لم يسموها كذلك، مثلما تمايز شعراء الغزل العذري والحسي ، يدعم ذلك كله مفهوم المنافسة الادبية التي وحدت توجهات شعراء الغرض الواحد .

ويمكن أن نضيف الى تلك القضايا ايضا ما ورد من نقاشات وقضايا اخرى تطرق اليها ابن سلام في مقدمة كتابه وفي ثنايا تقديمه وتعريفه بالشعراء المختار لهم لاسيما الكبار منهم، ونوجزها بالآتي:

- نشأة الشعر وأوليته: يرى ان الشعر الذي بين ايدينا مجهول الاولية الفنية لكن يوميء ضمنا الى ان اوليته ترتبط بعمر اللغة العربية التي يعرف عمرها، يقول: ولم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الابيات يقولها الرجل بين حاجته وانما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف"، وان الشعر انتقل بين القبائل العربية، فكان في ربيعة قم تحول الى قيس ثم الى تميم وبقي فيها الى يومه.
- ومن القضايا النقدية الاخرى التي تطرق اليها ارتبط الشعر بالحروب، ويكاد يكون اول من تنبه الى ذلك وهو يعلل قلة اشعار بعض القبائل، وان لم يقدم مبررا لغياب بعض القبائل عن ساحة التنافس الشعري في اغراض اخرى تظهر عادة في اوقات السلم والاستقرار، كالنسيب وغيره.، وان كان الاستقرار والترف كانت احد اسباب تطور الغزل في العصر الاموي وتميزه الى تيارات تبعا للبيئة التي وجد فيها.

- النحل والانتحال: وهي من القضايا الشائكة التي قلما خلا منها كتاب وتجاوزها موقف، وارتبطت بالوضع، يقول : " وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته، ولا ادب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف" الطبقات/٤، ويعلل ابن سلام ذلك بالقول ان اسبابه تعود الى مراجعة بعض القبائل لأشعارها فاستقلتها فأرادت ان تلحق بغيرها فوضعت الاشعار ونحلتها الى شعرائها السابقين، ثم موضوع التكسب عند الرواة السوء الطامحين بالمال ، وبين مدى تفشي هذه الظاهر بقوله:" ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد، الذين صح لهما قصائد بقدر عشر، وان لم يكن لهما غيرهن، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وان كان ما يروى من الغثاء لهما، فليس يستحقان مكانهما على افواه الرواة"/٢٦،ويشير الى جملة من المعطيات التي تثبت ضياع الشعر
  - منها ما نقله ابن سيرين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقوله: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب.
  - قول ابي عمرو بن العلاء: ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا اقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير.
  - يستشهد على ذهاب الشعر بقلة ما بيد الرواة من شعر طرفة وعبيد بن الابرص اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر مما لا يتناسب مع ما لهما من الشهرة والتقدمة، وان غيرهما من الشعراء قد سقط من شعره الكثير لكنهما كانا الاكثر.

لكنه بعد ذلك يعود لتأكيد عدم امكانية قبول الاشعار الموضوعة غير الصحيحة تحت هذه الاعذار قيرى ان الشعر في اوله كان كان ابياتا يقولها الرجل في حاجته وانما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ما يسقط شعر عاد وثمود وحمير وتبع.٢٦/١.

- ومما يرتبط بهذه الظاهرة ما قام به رواة السوء والوضاعون، فانتقد صنيع ابن اسحاق وغيره من رواة السوء اللذين ضللوا الناس فرووا اشعارا للأمم البائدة واخرى تنتمي لازمان سحيقة : " وكان ممن افسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن اسحاق بن يسار، وكان من علماء الناس بالسير... فقبل عنه الناس الاشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي اتينا به فأحمله، ولم يكن له ذلك عذرا.... وليس بشعر انما هو كلام مؤلف معقود بقواف"/٧، ويجادل بالأدلة من كتاب الله عز وجل لدحض مزاعم ابن اسحاق، والادلة العقلية التي نقلها عن العلماء على نحو ما ذهب اليه ابن حبيب من حداثة العربية التي نظم بها الشعر العربي ما يترتب عليه سقوط الاشعار التي تسبق تاريخ ظهورها على يد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام الذي كان اول من تكلم بالعربية ونسي لسان ابيه، الى جانب عنصر نسب العرب: فنحن لا نقيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرا، فكيف بعاد وثمود!!" وجعل معيار

قبول أي شعر توافق اهل العلم عليه واجماعهم على صحته وروايته، وكان من نتائج الجهود الكبيرة ان انتهت هذه القضية اواخر القرن الثاني الهجري بعد ان اتفق العلماء على اساسيات التنقيح والتوثيق لتظهر بعدها المصنفات الشعرية المعروفة لاحقا كالحماسات والمفضليات والجمهرات وبقية كتب المختارات، ويجد ضالته في الرد بقول ابي عمر بن العلاء : ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه؟ لو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ومثل ما روى الصحفيون، ما كانت اليه حاجة ولا فيه دليل على علم، وادلة اخرى عن نسب العرب ولغتهم مما يدحض روايات ابن اسحاق.

- والامر الاخر تصفية الحسابات القديمة ابان صراعات الاسلام والمشركين، والتي كانت ترافقها الاشعار التي كان يسوقها كل طرف ،واكثر من اصاب شعره النحل والانتحال حسان بن ثابت بسبب دوره المعروف في معارك المسلمين والمشركين ، ومكانته بوصفه شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام تجعل من محاولات طمس اشعاره امرا بديهيا عند حكام بني امية وغيرهم ممن شهر بهم حسان وغيره من الشعراء، وامتداد الصراع السياسي الى الاغارة على اشعار القدماء والاخذ منها او تغيير معانيها او الفاظها لتوافق الهوى السياسي القبلي ، لكن متانة الذاكرة الروائية ووجود عدد من متذوقي الشعر ورواته وحفظته جعل مسألة اكتشاف هذه المحاولات امرا يسيرا، وفي مقدمة اولئك المصححين المتتبعين خلفاء بني امية انفسهم والذين كانوا على درجة عالية من الثقافة الشعرية ، والقدرة على تمييز المعاني الرفيعة التي فضلوا ان يمدحهم بها الشعراء، الامر الذي اوجد نوعا من المعيارية في المديح تحديدا في هذا العصر واسهم في تشكيل صوره التي يسوقها الشعراء الساعين الى التقرب منهم، وبالمقابل اسهمت المعايير الدينية في صياغة نمط آخر من الصور تتمثل عند الفرزدق في مدائحه للعلويين ، وسهل كل هذا عملية تنقيح الاشعار ولو بشكل محدود مما لحق بها من محاولات التشوية والسرقة.
- ويبدو الصراع السياسي ذو الطابع القبلي احد العوامل التي وثقها ابن سلام بوصفها احد عوامل انتشار هذه الظاهرة ،فيذكر على ذلك مثالين ، الاول قصيدة ابي طالب التي تروى في مدح الرسول(ﷺ.)والتي رأى ابن سلام ان خصوصيتها السياسية اثرت عليها وشك في صحة النص المتداول مع النص الاصلي ، فلا يكاد يميز بين النص الاصلي وما اضيف اليه ، ويعلل ذلك بسهولة وليونة الشعر المكي الذي يستمد نقاءه ووضوحه وسلاسته من لغة اهل مكة، مطلعها(وابيض يستسقى الغمام بوجهه... ربيع اليتامى عصمة للأرامل)، لكنه لم يعرف هو وغيره منتهاها ،

ونجد في ثنايا الطبقات وترجمة الشعراء وذكر اخبارهم عددا كبيرا من المعايير الجزئية التي كانت وليدة الموقف ، وهو المأخذ الذي سجله الباحثون على نظرية ابن سلام، تعكس ذلك اقواله التي اخترنا عينات منها والتي مثلت تل المعايير الجزئية مثل:-

- اكثر طبقته شعرا وكان ذا قدر ومنزلة بين قومه-كثرة وشهرة
- يقول في شعراء مكة – فابرعهم شعرا عبد الله بن الزبعرى-
- وكعب بن جعيل شاعر مفلق قديم في أول الاسلام

- فنهشل بن حري شاعر شريف مشهور وابوه حري شاعر مذكور وجده ضمرة بن ضمرة، شريف شاعر
- وقال اهل النظر: كان زهير احصفهم شعرا وابعدهم من سخف واجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق.

وغير ذلك من الاحكام المتناثرة في ثنايا الكتاب التي لم تخل من تهور نقدي في اطلاق الاحكام اذا صح التعبير بسبب غلبة النزعة التأثرية على المنهج الذي لازال يعاني الضعف في هذه المرحلة من تاريخ النقد العربي القديم.

مصادر الدراسة:

- طبقات فحول الشعراء- ابن سلام
- العمدة/ ابن رشيق القيرواني
- تاريخ النقد الادبي عند العرب- د. احسان عباس
- مقالات في النقد العربي / د. داود سلوم
- محمد بن سلام الجمحي(ت٢٣١هـ) وكتابه طبقات فحول الشعراء- د. محمد علي ابو حمده